

مقدمة

اشتد الهجوم في الغرب على الإسلام والمسلمين بعد الهجوم على مركز التجارة العالمي في نيويورك، ومبنى البنتاجون في واشنطن يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وأصبح الهجوم على الإسلام مادة يومية في الصحافة والتلفزيون، وكل مسلم موضع اتهام في الولايات المتحدة ودول أوروبا بمجرد اكتشاف أنه مسلم.

ومع أن تصريحات القادة والزعماء في الغرب قد أكدت أن الحرب التي تشنها الولايات المتحدة وحلفاؤها على دول إسلامية هي حرب على الإرهاب وليست على الإسلام إلا أن فلتات لسان هؤلاء القادة كشفت غير ذلك مما تنطوى عليه الصدور.

وفي عالمنا العربي والإسلامي يعلن كثيرون أنه ليس هناك عداً من الغرب للإسلام أو المسلمين، وأن ما يقال عندنا عن هذا العداً ليس إلا تعبيراً عن الشعور بالنقص أمام الحضارة الغربية المتفوقة، أو تعبيراً عن الإحباط في نفوسنا لأننا نعتبر أنفسنا أصحاب تاريخ مجيد ونستحق مكاناً في العالم أفضل مما نحن فيه، ولكننا نعانى من الشعور بالنقص لأننا نجد أنفسنا متخلفين، وعاجزين عن الوصول إلى المكان اللائق بنا.

وهناك تفسيرات كثيرة يرددها من ينكرون، أو يرفضون الحقيقة وهي وجود تيار فكري وثقافي في الغرب رافض لعقائد ومبادئ وأفكار المسلمين، ويرى أن الإسلام هو السبب في تخلف المسلمين، وهذا التيسار قديم وله جذور تاريخية يمكن أن نجدها منذ بداية ظهور الإسلام، وقد تبلورت في السنوات الأخيرة في نظرية البروفيسور فرانسيس فوكوياما عن «نهاية التاريخ»، ونظرية البروفيسور صمويل هنتجتون عن صراع الحضارات، ومؤدى النظريتين حتمية الصدام بين الإسلام والغرب.

وعندما ظهرت هاتان النظريتان في الولايات المتحدة لم يلتفت إليهما أحد من مفكرى العالم الإسلامى، وكان الظن أنهما مجرد اجتهادات شخصية أو جنوح بالخيال، بعد أن شعر مفكرو الغرب بأن انتهاء الصراع ضد الاتحاد السوفيتى والأيدلوجية الشيوعية قد ترك فراغا فكريا وسياسيا، ربما يؤدي عدم وجود عدو للغرب إلى انتهاء الحاجة إلى الحشود العسكرية والترسانات المقدسة بالأسلحة والمصانع العملاقة ومراكز البحوث وعشرات الآلاف من العلماء، والأرقام الفلكية للأموال التى تُنفق على الجيوش والأسلحة فى الغرب، مادام العدو الأكبر قد زال من الوجود، ولم يعد فى العالم سوى قوة وحيدة هى الغرب تقودها الولايات المتحدة.

كان هذا هو الظن فى البداية، ولكن لم تكد تمضى فترة قصيرة حتى أصبحت نظرية صراع الحضارات والثقافات تتردد فى كل مناسبة، وعلى كل لسان، وفى كل مستوى من مستويات القيادة السياسية والعسكرية فى الغرب. وكانت الصدمة الأولى عندما صدر قرار من حلف الأطلنطى - وهو حلف عسكري أساسًا - باعتبار الإسلام هو العدو للغرب، بعد انتهاء الاتحاد السوفيتى، ثم توالى صدور تصريحات وبيانات على ألسنة الزعماء والقادة فى جميع دول الغرب تؤكد هذا المعنى، وأصبحت نظرية صراع الحضارات من المسلّمات التى فرغ الغرب من مناقشتها.. على رغم كل ما صدر من العالم الإسلامى من إنكار واستنكار لهذه النظرية، وتكرار التعبير عن حقيقة الإسلام كدين للتسامح والتعاون بين البشر، وأنه لا يؤمن بالصراع بين الحضارات أو الثقافات المختلفة، ويؤمن بالتعاون فيما بينها.

ولم يعد أمر العداء للإسلام فى الغرب خافيا على أحد فى العالم الإسلامى، بعد أن أعلن وزير الأوقاف الدكتور محمود حمدي زقزوق أن فى الغرب أكثر من ٦٠ ألف كتاب للهجوم على الإسلام. وأعتقد أن الذين ينكرون وجود هذا العداء هم فى الحقيقة يتهربون من مواجهة الحقيقة لأنها تفرض عليهم واجب العمل للدفاع عن الإسلام.

ولابد أن نسجل بعض الملاحظات التى لا بد منها قبل قراءة هذا الكتاب:

الأولى: أن هناك محاولات سياسية لتفكيك العالم الإسلامي، وتفكيك العقيدة الإسلامية، وتغيير مناهج تدريس الدين الإسلامي، وتغيير المؤسسات الإسلامية، تحت شعار إدماج الإسلام فى العولمة. والحقيقة أن هذا العمل يتم لإدماج المسلمين فى النظام العالمى الذى تقوده الولايات المتحدة، وتفرض فيه على دول العالم إرادتها، وتتصرف على أنها هى القانون، وأنها هى الوحيدة التى تمتلك الصواب، وعلى الجميع أن يقبلوا الهيمنة الأمريكية عن طيب خاطر.

الثانية: أن هدف السيطرة على أرض وأسواق وثروات الدول الإسلامية هدف سياسى، البعض يصرح به فى الغرب دون مواربة، والبعض الآخر يخفيه وراء شعارات ومبادئ وأفكار براقة زائفة مثل إكراه العالم الإسلامى على التغيير، وفرض النظام الديمقراطى الغربى والليبرالية الاقتصادية عليه بالقوة، وكذلك فرض أسلوب الحياة الأمريكى على العالم الإسلامى تحقيقاً لهدف «أمركة» العالم، أى تحويل العالم إلى عالم أمريكى، فكراً وسلوكاً بما فى ذلك الحرية الفردية التى تصل إلى الحرية الجنسية، وتفكيك نظام الأسرة المتماسكة فى العالم الإسلامى.

إن الذين يعملون فى الغرب بكل الطرق فى صناعة العداء للإسلام كثيرون، ولكن على الجانب الآخر فى الغرب مفكرون لهم قيمة علمية وفكرية يعملون على إنصاف الإسلام والدفاع عنه، ولكن أصحاب الصوت العالى هم صناع العداء. ولقد فكرت أن أجعل هذا الكتاب قسمين، الأول لفكر صناعة العداء، والثانى لفكر الانصاف للإسلام فى الغرب، ولكنى وجدت أن ذلك سيجعل حجم الكتاب أكبر مما يمكن احتمالاه، ولذلك فضلت أن أخصص هذا الكتاب للفئة الأولى، وأن أخصص كتاباً آخر للفئة الثانية.

كذلك فقد حرصت على أن تكون مادة هذا الكتاب مقصورة على كتابات وأفكار وأقوال مفكرين وقادة سياسيين من الغرب، ولم أعتد على مصادر أو كتابات المفكرين العرب والمسلمين، لأنى حرصت على أن نعرف ما فى عقولهم ونفوسهم ونترك التحليل والتعليق بعد ذلك لكل من يريد.

وإن كان في الغرب من يرى أن الإرهاب ظاهرة ناشئة من الإسلام ذاته، ويقولون صراحة: إن الإسلام يدعو إلى الإرهاب ويستخدمون في ذلك كل أساليب المغالطة، فيقولون مثلاً: إن الجهاد الذي يدعو الإسلام أنصاره إليه معناه أن المسلمين في حالة حرب دائمة ضد غير المسلمين، وأن قتل غير المسلمين واجب ديني على كل مسلم يثاب عليه في الآخرة، ودليلهم على ذلك وعود الإسلام للشهداء بالجنة والحياة عند ربهم يرزقون. ويتجاهلون قول علماء الإسلام من أن الجهاد حرب دفاعية وليس حرباً هجومية، هي حرب المسلمين على من يحاربهم أو يعتدى على أرضهم أو أموالهم أو أعراضهم، وفي الإسلام: من مات دون ماله فهو شهيد، ومن مات دون أرضه فهو شهيد، ومن مات دون عرضه فهو شهيد. والإسلام يأمر المسلمين بالأبىء بالعدوان ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة - ١٩٠]. وليس هناك أمر واضح قاطع مثل هذا الأمر الإلهي. وفي نفس الوقت فإن الإسلام يأمر المؤمنين به أن يتوقفوا عن القتال في اللحظة التي يعلن فيها أعداؤهم السلام ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَحْ لَهَا﴾ [الأنفال - ٦١].

والحقيقة أن الربط بين الإسلام والإرهاب ومقاومة الشعب الفلسطيني وتقديمها في الغرب على أنها وجوه متعددة لحقيقة واحدة هي الإسلام، فيه مغالطة مقصودة، وإن كان هناك أحياناً من يعترف بالحقيقة كما فعلت صحيفة الأوبزرفر البريطانية مثلاً في عدد ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٢ حين نشرت مقالا بعنوان «الغرب لم يعد بريئاً» قالت فيه: إن على الدول الغربية أن تعترف بأنه لن يكون هناك حل للتطرف الإسلامي غير تسوية المشكلة الفلسطينية، وينبغي أن يصدق العالم الغربي أن الديون والفقر وعدم المساواة جانب من الأرض الخصبة التي تثمر الغضب واليأس، وكذلك ينبغي أن تتخلى دول الغرب عن تلك النظرة المتعالية تجاه المسلمين، وعن القول بأن العالم الإسلامي هو المسئول وحده عن التخلف الذي يعيش فيه، ويستحق العقاب إذا استمر في مقاومة العولمة. وأخيراً على دول الغرب - وعلى رأسها الولايات المتحدة - التوقف عن الكذب والإدعاء بأن الحرب على العالم الإسلامي التي يقتلون فيها المسلمين هي حرب من أجل السلام والديمقراطية وحقوق الإنسان بينما هي حرب من أجل البترول. وعلى الغرب أن

يسعى إلى تحقيق مصالحه بطريقة عادلة ومستنيرة. وأنه لن يكون هناك ضمان لعدم تكرار حوادث الإرهاب غير التعامل مع العالم الإسلامي بالعدل.

وعلى الجانب الآخر نجد مفكراً استراتيجياً أمريكياً مثل بريجنسكي يقول في نيويورك تايمز (في أول سبتمبر ٢٠٠٢) : «هناك جهات لها مصالح استراتيجية تروج للعداء بين أمريكا والعرب..» ويشير إلى رئيس وزراء إسرائيل بالاسم ضمن هؤلاء الأعداء. كذلك فإن رئيس لجنة «الإسلاموفوبيا» في بريطانيا البروفيسور جوردون كونواي نائب رئيس جامعة ساسكس يعلن تقرير اللجنة بإدانة تفضي ظاهرة الخوف من الإسلام في بريطانيا والغرب، وانتشار الصورة النمطية في الإعلام عن الإسلام والمسلمين وربطها دائماً بالإرهاب والتخلف والبربرية.

وإذا كنا جادين في إيجاد طريق للمصالحة بين الغرب والإسلام، واقناع الغرب بأن الإسلام دين قبول وحوار وتعاون مع المختلفين معه، فإن علينا أن ندرك أن ذلك لا يكون بأن يغير الغرب أفكاره ومواقفه فقط، ولكن علينا أن نخطو نحن أيضاً نحو الغرب خطوة؛ أولاً بإدراك طبيعة هذا العصر والاندماج فيه دون تفريط في ثوابت العقيدة الإسلامية ثم بإعادة النظر في التفسيرات الرجعية للإسلام، ورفض الجماعات التي تدعى أنها سدنة الإسلام وأن لهم وحدهم حق الاحتكار للحقيقة وما يخالفها باطل. فلا بد أن يعود الإسلام بسيطاً بدون كهنة أو وسطاء، ولا بد من أن يقف جميع المسلمين صفاً واحداً ضد الذين يريدون إشعال حرب دينية بأية صورة من الصور.

وأخيراً فلقد ترددت كثيراً في ذكر الاتهامات والسباب التي وُجّهت للدين الإسلامي، وللقرآن الكريم، وللرسول ﷺ، ولكنني وجدت أن هذه الاتهامات ليست جديدة، فقد وجهت إلى الرسول ﷺ ذاته والوحي ينزل، وقد خلدتها القرآن في آيات نتلوها ونتعبد بها، لندرك أن العداء للإسلام قديم وسوف يستمر إلى يوم القيامة ولن ينتهي أبداً، وعلى المسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم وعن دينهم إلى يوم الدين. ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ [الفرقان - ٨].

﴿ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِحْرٌ كٰذِبٌ ﴾ [ص - ٤] .

﴿ قَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هٰذَا سِحْرٌ مُّبِيْنٌ ﴿٧﴾ اَمْ يَقُوْلُوْنَ افْتَرٰنَهٗ ۗ ﴾

[الأحقاف ٧ - ٨] .

﴿ وَاَلْقَدْ نَعَلِمُ اَنَّهُمْ يَقُوْلُوْنَ اِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسٰنُ الَّذِيْ يُلْحِدُوْنَ اِلَيْهِ اَعْجَبُوْا وَهٰذَا لِيْسٰنٌ عَرَبِيٌّ مُّبِيْنٌ ﴾ [النحل - ١٠٣] .

وفى المحاكم حين تنظر قضايا السب والقذف لابد أن يذكر فى الاتهام وفى الحكم ألفاظ السب والقذف حتى يتبين إن كانت تدخل فى نطاق مفهوم هذه الجريمة أو لا تدخل ، لذلك ذكرت بعض ما يوجه إلى الإسلام والقرآن والرسول من سب وقذف وشعرت بالحرص فى كتابة الباقي ، وتعالى الله عما يصفون .

ومن الضرورى أن أشير إلى أن هذا الكتاب فى الأصل مجموعة مقالات نشرت فى مجلة أكتوبر ، وقد يجد القارئ تكراراً فى بعض المواضع ، ولكنه تكرار مقصود لتذكير القارئ ، أو للتدليل على تواتر الاتهامات وامتلاء الكتب والصحف ومراكز الأبحاث فى الغرب بهذه الأقوال والأفكار .

وفى الحقيقة فإن هذا الكتاب ليس إلا «ملف معلومات» لكل من يريد أن يعرف «ماذا يقولون عن الإسلام والمسلمين» . وما فيه ليس إلا نماذج وأمثلة ، أما حصر وتوثيق كل ما قيل ويقال فإنه يحتاج إلى عشرات الكتب .

وأدعو الله أن يكون هذا الكتاب جرس إنذار ينبه الغافلين ، ويلزم المنكرين للحقيقة بالاعتراف بالواقع ، فيواجهوا هذه الحرب التى لا يعرف أحد متى وكيف تنتهى؟ ولكى يُغَيَّرَ المسلمون من أنفسهم ويعملوا بما علمهم الله من أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وإن كان الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿ اِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَاِنَّا لَهُ لَحٰفِظُوْنَ ﴾

[الحجر - ٩] فإن على المسلمين أن يفتحوا عيونهم لما يدور فى العالم حولهم ، ليقولوا للعالم ما هى حقيقة الإسلام وليواجهوا أعداءه .

والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

عبد الباقى

القاهرة - يناير ٢٠٠٣